مفتتح

الإنسان مخلوق متديِّن بالطبع

رئيس التحرير

د.محمد محمود مرتضى

تتمحور الرُّؤى الكونيّة تاريخيًّا حول ثلاثة أركان: الله، الإنسان، العالم؛ أمَّا الله فهو الإلهُ الفاعل للخلق والمُدبِّر له، وأما الإنسان فهو المَخلوق الأرقى في الوجود، الذي جعله الخالقُ خليفةً له في الأرض، لعمارتها وتحقيق الغاية والحكمة من الخَلْق، وأما العالم فهو "مسرح الأحداث"، ومَجال التأمُّل، وموضوع العلم، والدليلُ على عظمةِ الخالق، وموطِنُ وجود الإنسان وتَشريفِه من قِبل خالقه.

ومنذ أن قال الله «كُنْ» الأمرية، ونفخ في الإنسان من روحه، ثم أهبَطَه إلى الأرض، والإنسان يَسعى في طلب المَعرفة: معرفة الله، ومعرفة العالَم، ومعرفة نفسه؛ والمعرفةُ تبدأ بالسُّؤال، والسُّؤالُ هو دأبُ الإنسان منذ ولادته، والفلسفةُ هي فنُّ السُّؤال والتُّساؤُل، وما التَّفلسفُ إلاّ مُحاولةُ السَّعي للوصول الى إجابات. لذا كانَت الفلسفةُ والتفلسُف مذ كان الإنسان، ولم تُفارِقْهُ لحظةً واحدة، وإن اختلفَ السُّؤال والإجابة من حيثُ العمق تَبعًا لمراحل تطوُّر الإنسان.

لقد كتب (شيشرون) (106 ق.م - 43 ق.م) الفيلسوفُ الرُّوماني، منذ نَحوِ عشرين قرنًا مَضى، وتَبعَه كثيرونَ، أنَّ الفيلسوف اليونانيَّ الشهير (سقراط) (470 ق.م - 399 ق.م) قد أنزلَ الفَلسفةَ من السَّماء إلى الأرض، قاصدًا بذلك أنَّ الفلسفةَ قبلَ (سقراط) كانَت تَنظرُ إلى السَّماء، وإلى مُحاولة استكشاف العُنصرِ الأساسيِّ للخَلْق هل هو الماء أو الهواء أو شيء آخَرُ؟ وأنَّ (سقراط) حوَّلَ السُّؤالَ الفلسفيَّ من سؤال عن الكون إلى سؤالٍ عن الإنسان.

لكنَّ (شيشرون) قد جانبَ الصَّوابَ حتى بالمَعايير الغَربية؛ لأنَّ (سقراط) لم يَكنْ «فاعلاً» فلسفيًّا بقدر ما كان «مُنفعلاً»، ولَمْ يمُارسِ الفلسـفةَ ابتداءً، بالمقدار الذي مارسَـهُ مُواجَهةً، فـ(سقراط) نفسُـه اعترفَ أنَّ مُهمّتَه الأسـاسَ كانَت مواجهةَ الفكر الهدّامِ لتيّار السَّفسـطة، الذي أخذَ يَعبثُ بعقول الشَّـباب. وبهذا المعِيار، يَعودُ "الفَضل" في تحوُّلِ الفلسـفةِ من السَّماء إلى الأرض إلى «السوفسطائيِّين» لا إلى (سقراط).

على أنَّنا لا نُسلِّم في الأصل بمقولة انتقال الفلسفة من السَّماء إلى الأرض في مرحلة من تاريخ الفكر الإغريقي، سـواء على يدِ (سـقراط) أو على يد «السوفسطائيِّين» أو غيرهم؛ لأنَّنا نعتقد أنَّه حيـث يُوجد تجمُّعٌ بشريٌّ يوجد أنبياءُ ورُسـلٌ، وهؤلاء تَتمحور مُهمّتُهم حول تعريف الإنسـان بالغايـة التي خُلِق من أجلها، والمَهامِّ التي أُوكِلَت إليه، ومُقتضى ذلك قيامُ الأنبياء بتعليم النّاسِ وتعريفهم بالله، وذلك يقتضي أنْ يتعرَّفَ الإنسانُ على نفسه؛ فعن أمير المؤمنين عليه السلام: "مَن عَرَفَ نَفسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»[1].

وجاء في المأثور: "دخلَ على رسـول الله صلى الله عليه وآله رجلٌ اسمُه مُجاشِع، فقال: يا رسولَ الله! كيفَ الطَّريقُ إلى مَعرِفة الحقِّ؟ فقال صلى الله عليه وآله: معرفةُ النَّفسِ، فقال: يا رسولَ الله! فكيف الطَّريقُ إلى مُوافقة الحقِّ؟ قال: مُخالَفةُ النَّفسِ، فقال: يا رسـولَ الله! فكيفَ الطَّريقُ إلى رضا الحقِّ؟ قال: سَـخَطُ النَّفسِ، فقال: يا رسولَ الله! فكيفَ الطَّريقُ إلى وَصْلِ الحقِّ؟ قال: هَجرُ النَّفس، فقال: يا رسولَ الله! فكيف الطَّريقُ إلى طاعة الحقِّ؟ قال: عِصيانُ النَّفسِ، فقال: يا رسـولَ الله! فكيف الطَّريقُ إلى ذكر الحَقِّ؟ قال: نسـيانُ النَّفس، فقال: يا رسـولَ الله! فكيفَ الطَّريقُ إلى قُربِ الحقِّ؟ قال: التَّباعُدُ مِنَ النَّفسِ، فقال: يا رسولَ الله! فكيفَ الطَّريقُ إلى أُنسِ الحقِّ؟ قال: الوَحشةُ من النَّفس، فقال: يا رسولَ الله! فكيفَ الطَّريقُ إلى ذلك؟ قال: الاستعانةُ بالحقِّ على النَّفس»[2].

فمُهمّةُ الأنبياء ترتكز على بناء الإنسان في بُعدَيه العَقلي والرُّوحي، وفي الاصطلاحِ القُرآنيِّ: التَّعليم والتَّزكية، ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ [البقرة: 129] لكنَّ تزكيةَ النَّفسِ تتوقَّف على مَعرفتِها!

---

1 - الآمدي: غرر الحكم، حديث رقم: 7946.

2 - المجلسي: بحار الأنوار، ج95، ص456.

إذًا، مَعرفـةُ الله ومَعرفةُ النَّفس مَعرفتـان مُتَّحدتان، وإذا كان الأمر كذلك، فالتعرُّفُ على النَّفس جزءٌ لا يتجزَّأُ من مُهمّة الأنبياء. فيتحصَّل أنَّ السُّؤالَ الفلسفيَّ لم يَنحصِرْ في أيِّ وقت من الأوقات بالسَّـماء دونَ الأرض، ولا بالأرض دونَ السَّماء؛ إلا أنَّ العقلَ الغربيَّ أمعَنَ في تَجاهُلِ مُهمّات الأنبياء، وأخذَ يَنظر إلى التاريخ البشريّ بمَعزلٍ عن هذا الحراك النَّبويِّ، فلم يتصوَّرِ الفلسـفةَ إلا أنَّها: إمّا سُؤالٌ حولَ الكون، وإمّا حولَ الإنسان.

ومَهما يكنْ من أمرٍ، فالإنسانُ مُركَّب من روح (مُجرَّد) وجسد (ماديّ)؛ لكنَّ المُشكلةَ الأساسيّةَ، التي سيُواجهُها الإنسـانُ، أنَّ العالَمَ الذي يَعيش فيه ويُحيط به، والذي يُمكِنُ أن يَراه، هو العالَمُ المَحسـوسُ، لذلك هو يأنَسُ به ويَتفاعل معَه، فيتغلَّبُ الجانبُ الحسِّيُّ على الجانبِ المَعنويِّ، ما لم يكن ثمةَ ضابطٌ يَضبط إيقـاعَ العلاقة بين المُجرَّد والمادِّي، وبينَ المَعنويِّ والحسيِّ، وهنا بالضبط تأتي وظيفةُ الأنبياء؛ فالتَّعليم والتَّزكية التي تحدَّثنا عنها، ما هما إلّا محاولةٌ لضَبط إيقاع العلاقة بين المعنويِّ والماديِّ، حتى لا يَنحرفَ الإنسانُ بعيدًا عن فطرته، ولا يَنجرِفَ معَ شُبُهاتِ المادِّية الظاهرة على حساب المَعنويّة الباطنة.

لكنْ هل بعثة الأنبياء كافيةٌ لتحقيق النَّجاة لكلِّ البشر؟ بالطَّبع لا؛ لأنَّ مهمّةَ الأنبياء المُسـاعدة والتَّوجيه؛ على حين أنَّ الأساسَ في النَّجاة هو الاختيارُ الفرديُّ لكلِّ إنسان، وعَمَلُه وَفقَ الفطرة، وهدايـة الأنبياء؛ وفي المُقابلِ فإنَّ الخُسرانَ والانحرافَ إنَّما يَكونان نتيجةً للبُعد عَن نداء الفطرة وهَـدْيِ الأنبياء، وليس بالضرورة أن تكونَ الكَثْرَةُ هيَ مَن قـادَت الفَرْدَ إلى الانحراف، بل تكفي القلَّةُ أحيانًا لتَجرِفَ معَها الكَثيرينَ، شأنُها في ذلك شأنُ سُوسِ الخشب، الذي يُمكِنُ أنْ يَنطلق من سُوسةٍ واحدة ليَتكاثَرَ فيما بَعدُ، ويَنخرَ في الخشب حتى يُفسدَه. كما أنَّ الانحرافات العقديّة ليس بالضرورة أن تكون نابعةً من شُـبُهات حقيقية عند مَن يَقودها، فغالبًا ما كانَتْ تيّاراتُ الانحراف تَنبُعُ من مصالحَ فرديّة أو جماعيّة، سياسية أو اقتصاديّة أو اجتماعية، وهذا ما نَلحَظُه في كثير من التيّارات التي واجهَتِ الأنبياءَ، وانجرَفَ أمامَها الكثيرون، بسـبب الجَهلِ وتَزاحُمِ الشُّبُهات التي يَعمدُ قادةُ تيّارات الانحراف إلى بَثِّها ونَشرها، والتَّسـويقِ لها على أنها حقائق، مع معرفة قادتهم ويَقينهم بأنها ليست سوى أضاليل وأباطيل.

ومن جملة هذه الانحرافات، بل أخطرها على الإطلاق تألِيهُ غيرِ الله، واتِّخاذُ بعض الظواهر الطبيعية والأجرام السماوية، بل بعضَ البشرِ، أربابًا من دون الله، رغمَ مُناقضةِ ذلك للعقل القَويم،

والأهمُّ مُنافاتُه للفطرة السَّليمة؛ لذلك نجدُ القرآنَ الكريم يُخبرُنا عن خطابات الأنبياء، وهم يُحاورونَ المُنحرفينَ، ليس باستدلالات وبراهين ذات طبيعة فلسفية مُعقَّدة، وإنَّما بإشارات وتوجيهات تُلامسُ فطرتَهم، وتُحفِّز عقولَهم: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 63].

ولقد جاءَ الإسلامُ وظهرَ وسَطَ واقعٍ يَموجُ فيه الشِّرْكُ، ويَتوجَّهُ فيه النَّاسُ بالعبادة لغير الله -تعالى-، فجعَلَ الإسلامُ يَهْدِمُ أُسُسَ هذا الانحراف، ويُؤسِّسُ لقواعد متينة للتَّوحيد والإيمان، ويُرسي دعائمَ قويّةً في المباحث العقدية، ويَنسِفُ ما كانَ الناسُ عليه من الباطل، ويَحملُهم على شريعة الحقِّ والعَدل.

وفي أوربا جاءَ عصرُ النَّهضة في الغرب كردَّة فعلٍ على ممارسات رجال الدِّين، فاستغلُّوا الخلافَ معَ الكَنيسة لينالوا من فكرة الدِّين، ويُسوِّقوا فكرةَ أنَّ تحقيقَ التطوُّر العلميِّ ورفاهية الإنسان لا يَحصُل إلّا بالتَّخلِّي عَن الدِّين والأمور الغَيبيّة، والانصراف إلى الدنيا بالكليّة، فأهملوا الرُّكنَ الثالث والأساس، أي الله، على حين تَعمَّقوا في دراسة الكون والإنسان وصرفوا إليهما كلَّ طاقاتهم واهتماماتهم.

ولكن، ما هو الإنسان؟ إنَّه سؤالٌ يبدو بديهيًّا وبسيطًا حينَ تَطرحُهُ الفطرةُ ويَتلقّاهُ القَلبُ، ولكنَّهُ حينَ تناولته الأديانُ الوَضعيةُ والتيّارات الفلسفية أصبحَ على درجة كبيرة من التَّعقيد، وحصلَ من ورائه جدالٌ واختلاف، قسَّمَ الإنسانيةَ إلى أُمَمٍ وفِرَقٍ ومَذاهب، ووَصلَ ببعضهم إلى الاعتقاد بأن الإنسان "إله".

وهنا تَبرزُ جُملةٌ من التَّساؤُلات: إذا كان تأليهُ الإنسان نتيجةً طبيعية لانحراف الأديان الوَضعية، وتهافُت أدلَّتها، وتَخَبُّط أتباعها، فكيف وصلَ تأليه البشر إلى أديان سماوية، حديثة العهد بأنبيائها نسبيًّا؟ وكيف أصبح صَلْبُ المسيح، مثلاً، محورَ جدلٍ وحِجاج (إسلامي - يهودي) على عهد النبي الأكرم ﷺ؟ وكيف أثَّرَ هذا الجدال على رُؤية المَسيحية الحديثة للوجود؟ وكيف استغلَّ بعضُ المُستشرقين هذا الجدالَ من أجل التَّشكيك بالقرآن والانتصار لعَقيدة التَّثليث؟!

على أنَّ لَوْثةَ تأليه الإنسان لم تنحصر ببعض الديانات، بل تَعدَّتْها لتصلَ إلى فلاسفة الأنسنة وعصور التنوير؛ صحيح أنهم لم يَستعملوا كلمةَ إله بحَقِّ الإنسان، إلّا أنَّ الأوصاف التي أسبغوها على الإنسان، والمحورية التي جعلوه عَليها، لا تَقلُّ عمّا كانَت تَفعَلُه الديانات الوثنيةُ في تأليهِ

الإنســان. على أن التَّأليهَ ليس بالضرورة أن يكون صَريحًا، بل يكونُ أحيانًا بالسُّلوك تجاه الذّات والآخَر، وبهذا المعنى تَحوَّلَت التقانة في الغرب إلى إله، والعلم أيضًا إلى إله، وأصبحت المملكة المتحدة إلهًا، وأميركا كذلك، وجميعُهم يتصرَّفون وفقَ المَقولة الفرعونية: أنا رَبُّكُمُ الأعلَى.

لقــد تجاهَلَ الغَربُ القَضيةَ الغَيبيّةَ، واســتغرقَ في المادية، مُتجاهلاً أنَّ الإنســان المولود على الفطرة لا يمُكن أن يستقيم حاله إلا بالدِّين، وأنَّ الإنسان مُتديِّنٌ بطَبْعه، وأنَّه يَحتاج إلى إله أصلاً، ليس لأنَّ التألُّه والديانة -كما يقول فلاسفة غربيون- مدفوعة بدوافع نفسية تطوُّرية، مثل الخوف والجَهل، وإنما لأنَّها حاجة فطرية مطبوعة في نفس الإنسان منذ نشأته.

لذلك عندما تطوَّرَت فلسفةُ عصر التَّنوير، وأخذت تتَّجهُ لتَصنَعَ من ذات الإنسان محورًا للوجود بديلاً عن الله الواحد، كانَ من نتيجة ذلكَ أنْ أصبحَ الإنسانُ الغربيُّ خاويًا من الدّاخل، تتجاذَبُهُ الأوهامُ والمَخاوفُ، لأنَّ الفطرةَ فُصلَتْ عن خالقها، وتَشوشــت نَقْسُ الإنسان واضطربت، بدلَ أن تكونَ بمَعيّة الفطرة مصدرَ الطمأنينة والسَّكينة. وهكذا نجد أن فلسفة عصر التَّنوير وما بعدها قد تَرجمَت مبادئَ الإنســانوية الحديثة إلى حركات ثقافية واجتماعية، تدعو إلى تأليه الإنســان، كما هو الحالُ فيما يُسمَّى بـ «الحركة الأخلاقية»، وغيرها من "حركات".

وعلى كلِّ حال، فقد جاء هذا العدد من مجلة «اعتقاد» ليُعالِجَ في محوره قضيّةَ تأليه الإنســان، ســواء في الديانات الوضعية أم بعض الديانات السَّماوية، إضافة الى تيارات مُعاصرة رفعَت من شأن الإنسان إلى حَدِّ التأليه. وإنَّنا إذ نشكر الباحثين الذين ساهموا في هذا العدد، فإننا نرجو أن نكونَ قد قُمنا بإضافة مفيدة للقراء.

والحمد لله رب العالمين...

بيروت في 5-7-2024م الموافق 29 ذي الحجة 1445هـ